فنون الشعر الأندلسي الموسعة

1- الحنين والغربة .

2- وصف الطبيعة .

3- رثاء المدن والممالك .

4- النظم التعليمي .

أولا : الحنين والغربة في الشعر الأندلسي :

- **مفهوم الحنين والغربة :**

الحنين : هو شوق و توقان النفس مع الطرب والتنغيم .

والغربة : عاطفة تستولي على المرء وبخاصة الفنانين , مما يجعلهم يعيشون في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهوون أو يرغبون , وقد تبرز هذه العاطفة في شكلين :

- ***غربة المكان :***

وهو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه وهذا النوع من الغربة ليس جديدا على الشعر العربي , فقد أخذ شعراء العصر الجاهلي يعبرون عن غربتهم وتركهم أوطانهم وتكبدهم عناء السفر , معبرين في أثناء ذلك عن حنينهم وأشواقهم إلى ديارهم وربوعهم التي غادروها باختيار منهم . أما أولئك الذين خرجوا مع الفتوحات الإسلامية تاركين أوطانهم إلى عوالم جديدة استقروا بها , فقد بقيت ذكرياتهم وعواطفهم مع عالمهم الأصلي الذي رحلوا عنه , ومازال الحنين والشوق يراودهم من آن لآخر , معبرين عن غربتهم في عالمهم الجديد , ورغبتهم الشديدة في العودة إلى معاهدهم وديارهم التي حالت الظروف دون عودتهم إليها .

- ***غربة الزمان :***

هي تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير مواتيه تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه في مجتمع قد نشأ فيه . ويرجع ظهور هذا النوع من الغربة إلى ما كان يسود بعض الفترات التاريخية في الأندلس من فتن وصراعات سياسية وظلم , فبعض الحكام كانوا يبغون في الأرض بغير الحق , يضاف إلى ذلك أن بعض الطبقات الاجتماعية استغلت الأوضاع المتدهورة وتسلقت حتى وصلت إلى مكانة ومنزلة اجتماعية لا تستحقها ووصلوا إلى مراتب ومناصب دون امتلاكهم مقومات تجعلهم جديرين بها بل زاحموا الشعراء والمفكرين في مكانتهم الاجتماعية القديمة وأزاحوهم عنها مما عمق لدى الشعراء الإحساس بالمأساة . ولقد أخذ التعبير عن هذا النوع من الغربة صورا متعددة تبدأ بذم الزمان الذي عاش فيه

هؤلاء الشعراء فهم يتوجعون باللائمة عليه ويلتمسون العذر لأنفسهم أن جاءوا في زمن ليس بزمانهم على نحو ما نجد في قول أبي محمد مالك القرطبي :

وإنّما العذرُ لي أن جئتُ في زمنٍ لا الجيلُ جيلي ولا الأزمانُ أزماني

- **أسباب ذيوع شعر الحنين والغربة في الشعر الأندلسي :**

كان لشعراء المشرق فضل السبق في شعر الحنين , واقتفى شعراء الأندلس أثرهم , لكنهم لم يقفوا عند هذا الحد , بل توسعوا فيه, وفاقوا المشارقة في شعر الحنين كما وكيفا , بل كانوا أكثر براعة وتجديدا منهم , ومن أهم الأسباب التي أدت إلى ذيوع شعر الحنين عند الشعراء الأندلسيين :

أولا : الرحلة :

وهي الانتقال والحركة لغاية ما . وقد وجدت في الشعر المشرقي في العصر الجاهلي في وصف الرحلة وكذلك في العصر الإسلامي في وصف رحلة الجهاد , وفي العصر الأموي والعباسي في وصف رحلة الصيد , وما أن أطل العصر الأندلسي حتى كان للرحلة فيه مكانة عظيمة , وقد كانت الرحلة على نوعين اثنين , هما :

أ- الرحلة داخل المدن الأندلسية :

وقد كانت لطلب العلم أو لتدهور الأوضاع الأمنية .

وقول ابن سعيد بالغربة وهو بمرسية شرق الأندلس مصورا معاناة فراقه لربوع اشبيلية ؛ يعكس حضور هذا النوع في الشعر الأندلسي :

أقــلقــه وجده فباحا ... وزاد تبــريحه فنـــاحا
ورام يثني الدمـــــوع لـمّا ... جرت فزادت له جماحا
يكابد الموت كلّ حينٍ ... لو أنّه مات لاستراحا
ينزو إذا ما الرياح هبّت ... كأنّه يعشـــــق الرياحا
يسألها عن ربوع حمــصٍ ... لـمّا نمــا عرفها وفــاحا
كم قد بكى للحمام كيما ... يعيره نحوها جناحا

ب- الرحلة إلى بلاد المشرق :

وكانت الرحلة لطلب العلم هي دافع القوي لخروج الأندلسيين إلى المشرق , وكذلك كانت هناك رحلة قسرية بسبب الفتن وظلم الحكام والخلافات الداخلية .

ومن ذلك قول أبو الحسن علي بن سعيد العنسي وهو في مصر :

هذه مصر فأين المغرب ؟ مذ نأى عني دموعي تسكب
فارقته النفس جهلا , إنما يُعــرف الشيء إذا ما يذهـب

ثانيا : الاعتقال والإبعاد :

كانت السياسة سببا رئيسيا من أسباب السجن , بل هي الدافع الأقوى الذي من خلاله زج بالكثير من الشعراء الأندلسيين في السجون والمعتقلات , ومن أولئك الشعراء المعتمد بن عباد الذي سجن بأغمات بالمغرب , وقد قال في ذلك :

غريــبٌ بأرضِ المغربيــنِ أسيــرُ سيبكي عليه منبــرٌ وسريرُ

إذا قيل من أغمات قد مات جوده فما يُرتجى للجودِ بعدُ نشورُ

فيا ليت شعري هــل أبيتَنّ ليــلةً أمامي وخلفي روضٌ وغديرُ

موضوعات ومعانى شعر الحنين والغربة :

انحصرت موضوعاته في تذكر الوطن والتشوق إلى معاهده وشكوى الغربة والابتعاد عن الأرض والأهل والخلان , والندم على الاغتراب , وتصوير الحسرات لفقدان البلد والبعد عنه , وبث التجارب الذاتية للشعراء في ديار الغربة , وتصوير ملاعب الصبا وتذكر أيامهم وعهودهم السعيدة في ديارهم . وظل الشاعر الأندلسي يتمزق قلقا وإحساسا بالغربة , وظلت شكواه عنيفة , وبان حنينه كبيرا شامخا لا تهزه هبات الريح العاتية .

خصائص شعر الحنين والغربة :

1- سهولة الألفاظ .

2- صدق العاطفة .

3- التعبير عن التجربة الذاتية , مثل : الارتحال والعزلة والاعتقال والغربة .

4- المزج بين الحنين والطبيعة , فقد افتتحت قصائد الحنين بوصف الطبيعة في كثير من القصائد التي يحن فيها الشاعر إلى وطنه .

ثانيا : وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي

يعتبر الشعر دائما صدى للبيئة، اجتماعية كانت أو طبيعية والشعر الأندلسي في هذا النطاق يعتبر صورة أمينة دقيقة أنيقة لبيئة الأندلس , وبرغم أن شعراء الطبيعة الأندلسيين بدأوا تلاميذ لأساتذتهم المشارقة في أول أمرهم , فإن ذلك لم يمنعهم من أن يجوّدوا في فنهم ويحسّنوا في أعمالهم بحيث يمكن أن نقرر أنهم أتوا بشيء جديد في موضوعات شعر الطبيعة .

ومن الطريف في الأمر أن الأندلسيين لتعلقهم بشعر الطبيعة إلى حد الشطط والهوس جعلوا يطعمون المراثي بشعر الطبيعة فبينما تقرا مرثية لفقيد وتتوقع أن تسمع أنات محزون وغصص مكلوم إذ بك تسمع أبياتا في وصف الرياض والورد والأزاهير .

عوامل ازدهار شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي :

تفوق الأندلسيون في ميدان وصف الطبيعة على شعراء المشرق , واتوا بالروائع الخالدة وساعدهم على ذلك مجموعة من العوامل , هي :

1- جمال الطبيعة الأندلسية التي افتتن بها شعراء الأندلس , فقد وهبهم الله طبيعة ساحرة خلابة , فبيئة الأندلس من اغنى بقاع الدنيا منظرا وأوفرها جمالا , ولذا شغف الأندلسيون بها , فأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها , ويستمتعون بمفاتنها , فوصفوا الرياض والبساتين , والأشجار والثمار , والأزهار والأطيار , ووصفوا السحاب والرعد , والبرق والطيف , والأنهار والبحار ... , وقول ابن خفاجة خير دليل على هذا التعلق الشديد بجمالها حيث يقول :

يا أهل أندلـــس لله دركم ماء وظل وأشجـار وأنهــار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار

2- ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ازدهارا كبيرا في كافة جوانب الحياة الأندلسية , فالقصور والحدائق والنوافير التي أبدعت يد الفن في هندستها وزخرفتها من الخارج والداخل , وتأنّقت في إنشاء حدائقها وكل ما يتعلق بها , جعلت شعراء الأندلس يتنافسون في وصفها وتصويرها .

3- ازدهار مجالس الأنس والبهجة واللهو التي كانت تُعقد في أحضان الطبيعة فتثير قرائح الشعراء فيكتبون قصائد تمتزج في أغراضها بوصف الطبيعة المحيطة بهم .

أهم الشعراء الذين اهتموا بوصف الطبيعة في الشعر الأندلسي :

ابن خفاجة , وابن زيدون , ابن رشيق , ابن شهيد , ابن الزقاق , الرصافي الرفاء , وابن زمرك .

اتجاهات الأندلسيين في شعر الطبيعة :

1. التغنِّي بجمال طبيعة بلادهم .
2. وصف (مظاهر) طبيعة الأندلس .
3. وصف مجالس الأنس .
4. وصف قصور الأندلس

1- التغنّي بجمال طبيعة بلادهم :

تغنى الشاعر الأندلسي بجمال الطبيعة فامتد ليشمل الأندلس كلها حينا فغناها ومجدها , وحينا وقف أمام طبيعة مدينة منها شبَّ ودرج على أرضها وعاش في كنفها .

ومن أمثلة النوع الأول قول ابن سَفَر المَرينيّ , الذي تغنى فيه بجمال طبيعة الأندلس كاملة :

فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ تَلْتَذُّ نَعْمَاءُ وَلا يُفَارِقُ فِيهَا القَلْبَ سَرَّاءُ
وَلَيْسَ فِي غَيْرِهَا بِالعَيْـشِ مُنْتَفَــعٌ وَلا تَقُومُ بِحَــقِّ الأُنْــسِ صَهْبَاءُ

أَيْنَ يُعْدَلُ عَنْ أَرْضٍ تَحُضُّ بِهَا عَلَى الـمُـدَامَةِ أَمْــوَاهٌ وَأَفْيَاءُ
وَكَيْفَ لا يُبْهِجُ الأَبْصَارَ رُؤْيَتُهَا وَكُلُّ رَوْضٍ بِهَا فِي الوَشْيِ صَنْعَاءُ
أَنْهَــارُهَا فِضَّةٌ وَالمِسْكُ تُرْبَتُهَا وَالخَــزُّ رَوْضَتُــهَا وَالــدُّرُّ حَصْبَاءُ

وَلِلهَوَاءِ بِهَا لُطْــفٌ يَــرِقُّ بِه مَنْ لا يَــرِقُّ وَيَبْدُو مِنْـهُ أَهْوَاءُ

ومن النوع الثاني الذي تغنّى فيه الشعراء بجمال مدنهم نجد فيضا غزيرا من الشعر , منه على سبيل المثال قول ابن بُرد الأصغر في وصف رُصافة قرطبة التي بناها عبدالرحمن الداخل :

سَقَى جَوفَ الرُصَافَةِ مُسْتَهِلٌّ تُؤَلِّفُ شَمْلَهُ أَيْدِي الرِيَاحِ
مَحَــلٌّ مَــا مَــشَيْــتُ إلــيه إلاَّ مَشَى فِيَّ ابتهاجِي وانشراحي
كأنَّ تــرَنُّمَ الأَطْيَــارُ فِيهِ أَغَانٍ فَوقَ أَوتَارٍ فِصَاحِ
كَأنَّ تَثَــنِّيَ الأَشْجَــارُ فِيــــهِ عَذَارَى قَدْ شَرِبْنَ سُلَافَ رَاحِ

كَأنَّ الجَدْوَلَ الـمُنْسَابَ نصلٌ صَقِيلُ الـمَتْنِ هُزَّ إلى كِفَاحِ
كَأنَّ رِيَاضَــــهُ أَبْرَادَ وَشْــيٍ تَعَطَّــفُ فَوقَ أَعْطَافٍ مِلَاحِ

2- وصف (مظاهر) طبيعة الأندلس :

يخيل لمن يطّلع على شعرهم في هذا الاتجاه أنهم لم يغادروا شيئا مما وقع عليه بصرهم في أرضهم وسمائهم , إلاّ وقفوا أمامه وصوروه في شعرهم تصويرا يحيط بكافة أجزاء الموصوف , معتمدين في ذلك على التشبيهات والاستعارات والصور البيانية التي تقرب الموصوف إلى أذهان المتلقين حتى يصب مشاهدا .

ومن الطبيعة التي شدتهم إليها وتأنّقوا في تصويرها " الرياض " ومن ذلك قول الوزير أبي جعفر بن سعدون في وصف روضه :

وروضٍ كساه الطلُّ وشياً مجدَّدَا فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقعدَا
إذا صافحتْه الريح ظلتْ غصونُهُ رواقصَ في خُضرٍ من القُضْبِ مُيَّدَا
إذا ما انسيابُ الماء عاينتَ خِلتَهُ ، وقد كسَّرتْهُ راحةُ الريح ، مِبردا

3- وصف مجالس الأنس

يتجلّى هذا الاتجاه في وصف شعرائهم لمجالس الأنس والطرب التي كانوا يعقدونها أو يُدْعَون إليها .وما أكثر ما قالوا وأبدعوا في وصف هذه المجالس .

ومن الناحية التاريخية بدأت مجالس الأنس كظاهرة اجتماعية في أخريات دولة الأمويين بالأندلس , ثم أخذت هذه الظاهرة في الشيوع والانتشار في عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور , وشارك فيها الخاصة والعامة على السواء .

ومن هذه المجالس ما كان يُعقَد في المساء فيدوم طوال الليل , وما كان يُعقَد في الصباح فيدوم طوال النهار . وكلا النوعين من مجالس الأنس كان يشترك في وصف أمور بعينها , ثم ينفرد كلاهما بعد ذلك بأمور . كانا يشتركان في وصف الخمر وسُقاتها وأدواتها من كؤوس وأباريق , ثم تنفرد مجالس الليل بوصف مجالي السماء من كواكب ونجوم , بضيائها ولألائها . كما تنفرد مجالس النهار بوصف مجالي الأرض , ممثلة في رياضها وأزهارها , وأنهارها وجداولها , وغير ذلك من مباهج الأرض التي تقع تحت أبصارهم وينفعلون بها .

ومن هذه المجالس مجالس الملوك والأمراء , وكانت تُعقَد عادة في قصورهم , أو في زوارق على الأنهار تَحُفُ بها السفن . وهذه وتلك كان يُدعَى إليها أعيان الوزراء ونُبَهاء الشعراء , وأهل الموسيقى والغناء .

أما مجالس الأنس العامة , وهي بطبيعة الحال أكثر حُرية وانطلاقا , فكانت تُعقَد في الرياض , وعلى مجاري المياه وشطآن الجداول والأنهار المحفوفة بالأشجار والأزهار .

ومن شعر مجالس الأنس الذي يمتزج فيه وصف الخمر وساقيها بوصف بعض مجالي الطبيعة , قول الشاعر علي بن أحمد :

قُم فاســـــــــقني والرياضُ لَابِسةٌ وَشْياً من النّوْر حَاكَهُ القَطْرُ
في مجلـــسٍ كالسمـــــــــاءِ لاَحَ بهِ من وَجْهِ مَن قد هَويته بَدْرُ
والشمسُ قد عُصْفِرتْ غَلائلُها والأرضُ تَنْدَى ثيابُها الخُضْرُ
والنهرُ مثلُ الـمَجَـــــرّ حُـــــفَّ بهِ من الندامىَ كواكـــبٌ زُهْرُ

4- وصف قصور الأندلس

لم يقف تغني الشعراء بطبيعة الأندلس الحية والصامتة , بل تغنوا كذلك بوصف طبيعتها الصناعية , ممثلة في وصف قصور الأمراء والخلفاء والملوك , تلك التي أسرفوا في تشييدها على غرار قصور الأمويين والعباسيين في المشرق ,واتخذوها منتجعات للاستجمام والراحة , وللاستغراق في حياة اللهو والترف والنعيم , بعيدا عن مقر الحكم بالحاضرة , وكانت حياة القصور موقوتة بحياة بُنَاتِها , تبقى ما بقوا , وتذهب بالانتهاب والسلب بذهابهم .

ومن هذا الاتجاه وصف ابن عمار لقصر الدِّمَشْق بقرطبة :

كلُّ قصر بعد الدمــشق يُذَمُّ فيه طــاب الجَنَى وفـــاحَ المشَمُّ

منظــرٌ رائقٌ , ومـاءٌ نميرٌ وثرىً عــاطرٌ , وقصــرٌ أشَمُّ

بِتُّ فيه والليلُ والفجرُ عندي عنبرٌ أَشْهَبٌ ومِسْكٌ أحَمُّ

3- رثاء المدن والممالك

من فنون الشعر التقليدية التي احتذى فيها الأندلسيون المشارقة " فن الرثاء " ولكن شعراء الأندلس لم يقفوا بهذا الفن عند حد رثاء موتاهم من الملوك والرؤساء والأقارب والأحباب , وإنما نراهم يتوسعون فيه , ويطورون مفهومه , وذلك برثاء مدنهم , تلك التي غلبهم عليها أعداؤهم النصارى , وأخرجوهم منها مشردين في أنحاء الأندلس .

وقد قال شعراء الأندلس وأكثروا القول في رثاء مدنهم ودولتهم , حتى صار " رثاء المدن والممالك " بسبب ذلك فنا شعريا قائما بذاته في أدبهم .

وقد وجد في أدب المشارقة شيئا من هذا القبيل , كقصيدة ابن الرومي التي رثى بها مدينة البصرة .. وغيرها , لكن المشارقة لم يتوسعوا في رثاء المدن والممالك توسع الأندلسيين , ولذلك لم يظهر هذا اللون من الشعر في أدبهم , كما ظهر في الأدب الأندلسي فنا قائما بذاته .

وقد طبع على هذا اللون من الرثاء الأسى العميق , والتماس العظة والعبرة والتأسي في قيام الدول ثم زوالها منذ القدم , وإرجاع نكبتهم إلى فعل الدهر حينا وإلى أنفسهم حينا آخر , وتصوير ما أصاب الإسلام والمسلمين في الأندلس من ذل وهوان , وتعلقهم بديارهم الجميلة التي أُجْلُوا عنها , والتفجع على الأهل والرفاق المشردين .

أما طرائق تناولهم للموضوع , فتكاد تكون متشابهة , على الرغم مما فيها من تنوع , ومن تفاوت في درجة جودة التعبير .

وقد تميزت الناحية الفنية في مراثيهم لمدنهم بغلبة عنصر العاطفة عليها , كما تميزت بالاعتماد أكثر على التشبيه والاستعارة في إبراز المعانى وتجسيمها , وبث الحركة والحياة فيها , ثم باللجوء إلى أسلوب الاستفهام البياني , وخاصة ما يخرج منه عن المعنى الحقيقي إلى التعجب

والإنكار والتمني . ولاغرابة في ذلك فكم من المعاني التي فجَّرتها نكبة الأندلس في نفوسهم , كان يدعو إلى العَجب أو الإنكار أو التمني .

وقول أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس خير شاهد على هذا الفن الشعري , حيث يقول :

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ	فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأيامُ كما شاهدتها دُولٌ	مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد	ولا يدوم على حالٍ لها شان
يُمزق الدهر حتمًا كل سابغةٍ	إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ
وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْ	كان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان
أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ	وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟
وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ	وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ ؟
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ ؟
أتى على الكُل أمر لا مَرد له	حتى قَضَوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك	كما حكى عن خيال الطّيفِ وسْنانُ
دارَ الزّمانُ على (دارا (وقاتِلِه	وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ
كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببُ	يومًا ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ
فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة	وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادث سُلوان يسهلها	وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له	هوى له أحدٌ وانهدْ ثهلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتحنتْ	حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل (بلنسيةً) ما شأنُ) مُرسيةً(	وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ) جَيَّانُ (
وأين (قُرطبةٌ) دارُ العلوم فكم	من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين (حْمص) وما تحويه من نزهٍ	ونهرهُا العَذبُ فياضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما	عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من; ! أسفٍ	كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ

على ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما	فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ	حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ	إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ	أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ ؟
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها	وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ
يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً	كأنها في مجال السبقِ عقبانُ
وحاملين سيُوفَ الهندِ مرهفةً	كأنها في ظلام النقع نيرانُ
وراتعين وراء البحر في دعةٍ	لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ	فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ ؟
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى وأسرى فما يهتز إنسان ؟
ماذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ	وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ ؟
ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ	أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ
يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزّهمُ	أحال حالهمْ جورُ وطُغيانُ
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم	واليومَ هم في بلاد الكفرِّ عُبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ	عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ	لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ
يا ربَّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما	كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةً مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت	كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً	والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ	إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

فنون الشعر الأندلسي المحدثة

1- الموشحات الأندلسية .

2- الزجل الأندلسي .

3- شعر الاستغاثة .

1- الموشحات الاندلسية:

قد يطول الحديث ونحن نتكلم عن نشأة الموشح وقد يثار جدل له مبرر من خلال كثرة المصادر التي تناولت الموشح وقد انقسمت على قسمين : قسم منها يرى أن الموشح مشرقي الاصل والآخر يرى أنه اندلسي.

لعل الموشحات أهم الاشكال التي تفتقت عنها القريحة العربية في سعيها للابتكار والتجديد فقد ظهرت قبلها الوان أخرى متنوعة بالفصحى والعامية ولكنها انطوت صفاحاتها .

أما الموشحات فقد ظل الشعراء ينظمون بها وشمل تأثيرها العالم العربي فالموشحات في واقع الامر فن أندلسي خالص بمعنى أنه لم يعرف في صورته الناضجة المكتملة الا في أرض الاندلس وليس في هذا الرأي ما يتعارض مع القول بأن هناك اعمال ظهرت بالمشرق يعدونها بمثابة التمهيد لظهور هذا الفن الجديد الذي ولد في القرن الثالث الهجري على يد شعراء مثل محمد بن محمود أو حمود القبري او مقدم بن معافي الذي تنسب بدوره الى قبره احدى القرى الواقعة قرب قرطبة ويضم كتاب الذخيرة في محاسن أصل الجزيرة لابن بسام أقدم اشارة وصلت الينا عن طور نشأة هذا الفن يقول :

(" وأول من صنع الموشحات بإفقنا واخترع طريقها محمد بن محمود القبري الضرير وكان يصنعها على اشطار الاشعار غير ان اكثرها من للأعاريض المهملة غير المستعملة يأخذ اللفظ العامي ويسميه المركز ويضنع عليه الموشحة دون تضمين أو اغصان)

اشتقت كلمة الموشح – على ارجح الظل – من المعنى العام للتزيين سواء اكان ذلك وشاحاً ام قلادة مرصعة ام غير ذلك والوشاح كله حلي النساء وقد استعملت هذه اللفظة للتعبير عن معاني بلاغية لكن ما يعيننا هنا هو دلالتها على قالب من قوالب الشعر العربي عرف على مدى الايام بالموشح او التوشيح وعرف الناظم فيه بالوشاح والآراء حول النشأة الاندلسية لهذا الفن كثيرة ولكن هذا لا يعني ان الموشحات ظاهرة مستقلة عن الشعر العربي فمؤلفاتها هم عرب وهذه الحقيقة لم ينكرها حتى المستشرقون على الرغم من قولهم ان فيها عناصر اسبانية محلية .

اقسام الموشح

1-القفل :-هو اجزاء مؤلفة يلزم ان يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها في الوزن والقافية وعدد الاجزاء والقفل يتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الاقرع.

كما في قول الاعمى التطيلي:

ضاحك عن جمان
سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان
وحواة صدري

2-للبيت :-وهو اجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم في كل بيت منها ان يكون متفقاً مع بقية ابيات الموشح والوزن وعدد الاجزاء أما القوافي فيحسن ان تكون قوافي كل بيت مخالفة لقوافي البيت الاخر وقد يكون البيت مكوناً من ثلاثة اجزاء كما في قول التطيلي :-

آه مما أجد	**شفني ما أجد**
قام بي وقصد	**با طش متئد**
كلما قلت قد	**قال أين قد**

ومن الابيات ما تأتي مفردة كما في قول أحدهم

أرى لك مهند أحاط به الاثمد فجرد ما جرى

ومن الابيات ما هو متكون من خمسة اجزاء

الخرجة :عبارة عن القفل الاخير من الموشح والشرط فيها أن تكون حادة من ألفاظ العامة ولغات الخاصة فإذا كانت منسوجة على منوال ما تقدمها من الابيات والأقفال خرج الموشح ان يكون موشحا إلا اذا كان موشح مدح وذكر أسم الممدوح في الخرجة فأنه يحسن ان تكون الخرجة معربة كقول أبن بقي :

أنما يحي سبيل الكرام : واحد الدنيا : ومعنى الأنام

وقد تكون الخرجة اعجمية :

ميو سيدي ابراهيم يانوا من ولج

ومعناها ياسيدي ابراهيم ياصاحب الاسم العذب اقبل الي في المساء فأن لم ترد جئت اليك ولكن اين اجدك

و من الموشحات الذائعة الصيت والبالغة الدقة والتصوير، موشحة ابي بكر ابن زهر، وهي تعتبر نموذجا من في الموشحات التامة، يقول ابن الزهر، وهو حفيد ابي مروان عبد الملك ابن زهر، يقول من شعر ظاهره التغني بالخمرة، وما هي بالخمرة، لكنها عروس شعر تقليدي كان يحلو لهم أن يبدأوا به موشحاتهم يقول:

أيها الساقي اليك المشتكى ** قـد دعونـــاك وإن لـم تسمع
ونديـم همـت في غرتـــه
وبشرب الـراح مـــن راحته
كلما استيقظ من سكرتـــه
جـــذب الـزق اليه واتكـــى ** وسقاني اربعـــاً فـي اربـع
***

ما لعيني عشيت بالنظـــر
أنـــكرت بعـدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبري
عشيت عيني من طول البكا ** وبكى بعضي على بعضي معي
***

غصن بـــان مـــال من حيث استوى
بـــات مـن يهـــواه مـــن فرط الجوى
خفق الاحشاء مـوهـــون القـــوى
كلما فكر في البين بكـــى ** ويحـــه يبـــكي لمـــا لم يـــقـعِ
***

ليس لي صبر ولا لي جـــلـــدُ
يـــا لقـومي عـذلـوا واجتهدوا
أنـــكروا شكواي مما أجـــدُ
مثل حـــالي حقـــها أن تشتكي ** كمـــد اليـأس وذل الطمعِ
***

كبدي حــري ودمعــي يكـــفُ
تعــرف الذنـــب ولا تعترفُ
أيــها المعــرض عـما اصـفُ
قــد نمـــا حبي بقلبي وزكـــا ** لا تـــقـــل في الحب أنـــي مـدعي

2- الزجل الأندلسي

<u>نشأة الزجل وتطوره :</u>

يلتقي الزجل مع الموشحات في أنه مثلها من فنون الشعر التي استحدثها الأندلسيون , وعلى هذا فهو وليد البيئة الأندلسية , ومنها خرج إلى البيئات العربية الأخرى وانتشر فيها .

ومن الأقوال التي تثبت أن الزجل فن أندلسي مستحدث قول ابن خلدون في مقدمته : " ولمّا شاع **التوشيح في أهل الأندلس** , وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه , نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله , ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيها إعرابا , **واستحدثوا فنا سموه بالزجل** , والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد , فجاءوا فيه بالغرائب , واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة "

وقد مرّت نشأة الزجل في الأندلس بمجموعة من الأدوار :

<u>الدور الأول :</u>

دور زجل العامة أو شعر العامة , ويتمثل في الأغنية الشعبية العامية , التي تنبع تلقائيا لدى بعض العامة بباعث تجربة شخصية , أو من وحي حدث عام أو موقف معين , ثم تشيع على ألسُن الناس , ويتغنون بها فرادى وجماعات .

فإذا كان للمثقفين شعرهم الفصيح ممثلا في القصائد والموشحات التي لا ترقى إلى أفهام العامة , فإن لهؤلاء أيضا شعرهم الشعبي ممثلا في أغانيهم الشعبية التي هي مظهر لنفسياتهم , وحالتهم العقلية , وآرائهم الاجتماعية , وآدابهم وأخلاقهم .

<u>الدور الثاني :</u>

زجل الشعراء المعربين , ويبدو أنه جاء تاليا في النشأة ' لزجل العامة ولعل الشعراء الذين حاولوا هذا النوع من الزجل قبل عصر ابن قزمان كانوا مدفوعين إليه :

- بالرغبة في أن تنتشر أزجالهم المصطنعة بين الطبقات المثقفة كنوع من الطرافة .
- أو بالرغبة في أن يعرفوا لدى العامة معرفتهم لدى الخاصة وذلك بوضع أزجال لهم يتغنون بها .

- وربما لرغبتهم في التميز بالزجل عندما وجدوا أنفسهم لا يقعون مع فحول الشعراء المعاصرين لهم في شيء .

الدور الثالث :

هو دور زجالي القرن السادس الذي شهد نهاية عصر ملوك الطوائف وبداية عصر المرابطين في الأندلس . ولما كان ملوك المرابطين لا يتقنون اللغة العربية , فإن شعراء القصائد والموشحات لم يلقوا منهم تشجيعا , ولهذا ازدهر الزجل في هذا القرن . ومن زجّالي القرن السادس : الإشبيلي ,وأبو بكر بن قزمان إمام الزجالين على الإطلاق .

الدور الرابع :

ظهر بقيام دولة الموحدين وسابق حلبة الزجالين في هذا العصر هو أحمد بن الحاج المعروف باسم مَدْغَلِيّس الزجال .

موضوعات الزجل :

الزجل الأندلسي مثله مثل الموشحات من حيث تناوله لموضوعات الشعر التي تناولتها القصيدة المعربة . والذي يتصفّح ما وصل من أزجال الأندلسيين يرى أنهم قالوا الزجل في : الغزل والمدح والوصف والخمريات والمجون والتصوف وغير ذلك من فنون الشعر التقليدية المعروفة .

أشكال الأزجال وأوزانها وسماتها :

جمعت الأزجال بين القصائد والموشحات من حيث **الأشكال والأوزان** .

فالقصائد الزجلية , في أول صورة ظهرت لهذا الفن العامي المستحدث تتفق مع **القصائد المعرَبة التقليدية** في التزام الوزن الواحد , والقافية , والمطلع المصرَّع , ولا تختلف عنها في شيء غير اللحن والإعراب واللغة .

الزجل + القصيدة المعربة التقليدية (**يتفقان** في : الوزن الواحد + القافية + المطلع المصرَّع)

الزجل - القصيدة المعربة التقليدية (**يختلفان** في : اللحن + الإعراب + اللغة)

كما **تتفق** الأزجال مع **الموشحات** في الأجزاء الأساسية التي تُبنى عليها من : مطلع وأسماط وأقفال وأدوار وخرجة , ثم **تختلف** هي عن الموشحات في البعد عن تعدد فقرات بعض الأجزاء , وفي التقليل من قوافي الفقرات الداخلية , ثم في التزام خرجة واحدة عامية دائما .

الأزجال +الموشحات (**اتفقتا** في : الأجزاء الأساسية التي تُبنى عليها من مطلع وأغصان وأسماط وأقفال وأدوار وخرجة)

الأزجال- الموشحات (**اختلفتا** في : البعد عن تعدد فقرات , والتقليل من قوافي الفقرات الداخلية , والتزام خرجة واحدة عامية)

3-شعر الاستغاثة

شعر الاستغاثة : هو شعر يقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب العربي في المحل الأول , وهمم المسلمين في شتى أقطارهم , كي يهُبُّوا بباعث الأخوة الإسلامية لنجدة إخوانهم بالأندلس , ومدِّ يد العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم من نصارى الأندلس الذين أطمعهم ضعف ملوك المسلمين بها , فراحوا يضاعفون من إغاراتهم على مدنهم ويهددون أهلها بالاكتساح الشامل .

ومنذ القرن السادس فصاعدا , وبسبب تخاذل ملوك الاندلس , وتفرق كلمتهم , وإسرافهم على أنفسهم في اللهو والمجون , وانشغالهم عن أمور الجهاد بمحاربة بعضهم بعضا , أخذ العدو يتجرأ عليهم , ويباغتهم بالإغارة من وقت لآخر والاستيلاء على أطراف بلادهم شيئا فشيئا , وكلما مر الزمن ازداد المسلمون ضعفا , وازداد الأعداء تبعا لذلك قوة وجرأة عليهم !

وكان شعراء الأندلس كبقية مسلميها يشاهدون تساقط قواعدهم ومدائنهم تباعا في يد النصارى , كما يشاهدوا محو معالمها الإسلامية , وطرد أهلها منها , والافتنان في صور تعذيبهم , فيستولي عليهم الأسى والذهول , ولا يملكون إلا أن يجأروا بشعر الاستغاثة , يخاطبون به قلوب ملوك المسلمين عامة , وملوك المغرب العربي خاصة من مرابطين وموحدين , فيستجاب لصريخهم حينا , وتصم الآذان عنه أحيانا , إما لانشغال هؤلاء الملوك بأحداث وهموم بلادهم , وإما ليأسهم من أهل الأندلس أنفسهم , لما عانوه معهم من قبل , وما عرفوه عنهم من تآمر بعضهم مع أعداء البلاد عليهم وعلى إخوانهم بالأندلس , في مناسبات سابقة .

وقد كثر شعر الاستغاثة هذا في الأدب الأندلسي , حتى صار بكثرته وتنوع صوره فنا جديدا في الشعر الأندلسي بل في الشعر العربي كله , لأنه نابع من صميم مأساة الأندلس , التي لم يكن لها نظير من قبل في التاريخ الإسلامي .

وفي قصيدة ابن الأبار القضاعي خير شاهد على شعر الاستغاثة , حيث قال في رثائه للأندلس واستنجاده بالخليفة العباسي :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ***إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست *** فلم يزل منك عز النصر مُلتمسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جرزاً *** للحادثات، وأمسى جدها تعسا

ففي بلنسية منها وقرطبةً *** ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مـدائنٌ حـلها الأشـرك مـبتسماً *** جـذلان وارتـحل الأيـمان مـبتئسا

وصـيرتها الـعوادي الـعابثات بها *** يستوحش الطرف منها ضعف ما أنِسا

يـا لـلمساجد عـادت لـلعدا بِيعاً *** ولـلـنداء غـدا أثـنائها جـرسا

لـهفي عـليها إلـى استرجاع فائتها *** مـدارساً لـلمثاني أصـبحت دُرَّسـا

يـا أيـها الـملك المنصور أنت لها *** عـلياء تُـوسع أعـداء الهدى تعسا

وقـد تـواترت الأنـباء أنـك مـن *** يُـحيي بـقتل مـلوك الصفرِ أندلسا

طـهر بـلادك مـنهم إنـهم نـجسٌ *** ولا طـهارة مـا لم تُـغسل الـنجسا

وامـلأ هـنيئاً لـك الـتأييد ساحتها *** جـرداً سـلاهب أو خـطيئةً دُعُـسا

واضـرب لـهم موعداً بالفتح ترقبه *** لـعل يـوم الأعـادي قد أتى وعسى

ابن زيدون

وُلِدَ ابن زيدون فـي قرطبة سنة 394هـ 1003م واسـمـه أحـمـد بن عبد الله بـن زيـدون أبـوه فقيه من سـلالـة بنـي مخـزوم القـرشـيين، وجدُّه لأمه صـاحـب الأحكـام الوزيـر أبو بكـر محـمد ابن محـمد بن إبراهـيم، و صـاحـب الأحكام تعني أنه اشـتغل بالفقـه والقضـاء.

تـعلَّم ابـن زيـدون في جامعـة قرطبـة التـي كـانت أهـم جـامعات الأندلـس يَـفِدُ إليـها طـلاب العـلـم من المـمالـك الإسـلاميـة والنصـرانية على السـواء.. ولـمع بين أقرانه كشاعر.

كـان الشـعر بدايـة تـعرُّفه بفَـرَاشَـةِ ذلـك العصـر ولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي الضـعيف المعـروف "بالتخـلف والركـاكـة، مشـتـهـراً بالشـرب والبطـالـة، سـقيـم السِّـر والعلانية، أسير الشهوة، عاهر الخلوة" كـما يقول عنه أبو حيان التوحيدي.

أحب ابن زيدون ولادةَ حُـبًّا مَلَكَ عليه حياته وأحَـبّتهُ هي أيضـا، وعاش معـها فـي السـعادة أياما، ثـم هجـرتـه لسـبب تافـه اخـتـلف فيـه المؤرخـون بغناء إحـدى جواريها فـي

حضـورها فأغضــبها منه ذلك. ولكــي تُـغيظــه وجـدت عاشقًا جديداً هو الوزير أبو عامر بن عبدوس.

عندما غضبت عليه ولادة كتبت له تقول:
لَو كُنت تُنصف في الهَوَى ما بَيْنَنا
لَمْ تَهْــوَ جــَارِيَتــي وَلَمْ تَتَخَــيَّر
وَتَرَكْــتُ غُصْــنَا مُثمِــراً بِجَــمَالِـهِ
وَجَنَحْتُ لِلْغُصْنِ الّذِي لَمْ يُثْمِر
وَلَقَــدْ عَـلِـمْتُ بِأَنّــنِــي بَـدْرَ السّــمَـا
لَكِـنْ وَلِعْــتَ لِشَـوقِي بِالـمُشْــتَرِي

حاول ابن زيدون جاهداً إبعاد ولادة عن ابن عبدوس، واسـتعادة الأيام الجـميلة الماضـية، لكــنهـا رفضـــت، واتهـمـــه ابـن عـبدوس بأنــه ضالع في مؤامرة سياسية لقلب نظام الحكم وزُجَّ به في السجن.

كتب ابن زيدون قصائد كـثيرة يسـتعـطـف فيهـا "أبا الحــزم جهـور" حاكم قرطـبة، كــمـا كتب قصائـد أخـرى لأبي الوليد بـن أبي الحزم ليتوسـط لدى أبيــه، وكــان أبو الوليـد يحــب ابن زيـدون لكن وســاطــته لم تنفـع.

هرب ابن زيــدون من الســجن، واختبأ فـي إحدى ضواحي قرطبة وظل يرسل المراسيل إلى الوليد وأبيه حتى تمَّ العفو عنه، فلـزم أبا الوليد حتى تُـوُفِّيَ أبو الـحزم وخلفه أبو الوليـد الذي ارتـفع بابن زيـدون إلى مرتـبة الوزارة.

لم يَنْسَ ابن زيدون حبه الكبير لولادة التي أهملته تمامًا، فجـعله أبو الوليد سـفيرًا له لدى مُلوك الطوائف حتى يتسـلى عن حبه بالأسـفار وينسـاه، لكن السـفر زاد من حـب ابن زيــدون لـولادة وشــوقه إليها، فعــاد إلــى قرطبة.

أُتِّهِم مــرة أخرى بالاشتراك في محاولة قلب نظام الحكم على أبي الوليد بن جهور الذي غضب عليه، فارتـحل ابن زيدون عن قرطـبة وذهــب إلــى بـلاط المعـتـضــد بــن عـباد فـي أشـبيلية، وهــناك لقــي تكـريمًا لم يسـبق له مثيل.

ظـلّ ابن زيدون اســير حـب بنت المسـتكـفـي حتى أثر عليه شـرب المدامة وكــادت تذهب عقله، وكتب إليها يستديم عهدها، ويؤكد ودها، ويعـتـذر مـن فـراقــها بالخـطـب الــذي خشـيه، والامتحان الذي غشيه، ويعلمها أنه ما سلاها بخـمر ولا خبا ما فـي ضلوعه من ملتهب الجمر.

قصيدة ابن زيدون المسماة "بالنونية"تعتبر من نــوادر الشــعر العـربي، حـيث تمكــن مــن وصـف مؤثر وحياكــة بالغــة فـي النــص والــتي نـورد بعضــا من أبياتها لأهميتها.

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيْلاً مِنْ تَدانِيْنا
وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا

ألا وقَدْ حَانَ صُبح البَيْنِ صَبَّحنا
حِينٌ فقام بنا للحِين ناعِينا
مَن مُبلغ المُبْلِسينا بانْتِزاحِهم حُزنًا
مَعَ الدّهرِ لا يَبْلى ويُبلِينا
أنّ الزّمَان الذِي مَا زَال يُضْحِكُنا
أُنْسًا بِقُرْبِهم قَدْ عَاد يُبكينا
غيظَ العِدى مَن تُسَاقِينا الهَوَى فَدَعوا
بِأنّ نَغُصَّ فَقَال الدّهرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَان مَعْقُودًا بِأنْفُسِنا
وأنْبَتَ ما كَان مَوصُولاً بأيْدِينا
لَمْ نَعْتقِد بَعْدَكُم إلاّ الوَفَاءَ لَكُمْ
رَأيًا وَلَم نَتَقلّد غَيرَهُ دِيْنا
مَا حَقّنَا أنْ تُقِرّوا عَينَ ذِي حَسَدٍ
بِنا، وَلا أنْ تُسِرّوا كَاشِحًا فِيْنَا

ومن اشعاره في وداع ولادة، لما عزم ابن زيدون على الرحيل إلى إشبيلة كتب إليها مودعا:

وَدِّعْ الصَّــبْرَ مُحِــبٌّ وَدّعَــكْ
ذَائِــعٌ مِــنْ سِرِّهِ مَـا اسْـتَوْدَعَكْ
يَقْــرَع السِّــن عَـلى أنْ لَـمْ يَكُـنْ
زَادَ فِــى تِلْــكَ الْخُطَـا إذْ شَـيّعَكْ
يَــا أَخَــا البَــدْرِ سَــنَاءً وَسَـنَا
حَــفِظَ اللّــهُ زَمَانــا أَطْلَعَــكْ
إنْ يُطِــلْ بَعْــدَك لَيْــلِي فَلَكُــمْ
بِــتُّ أَشْــكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

أصبحت حياة وسيرة ابن زيدون المتقلبة، وحبه الكبير لولادة بالإضافة إلى أعــماله الشعرية والنثــرية المتــميــزة موضوعــات لدراســات وإبداعــات كثيرة لعـل أشــهرها مســرحية الشــاعر المصــري فــاروق جــويدة "الوزيـر العاشــق" التــي قـام بـبطـولتها عـبد الله غيث وسميحة أيوب.

ومن أهم أعمال ابن زيدون الباقية إلى الآن غير أشعاره "الرسالة الجدية" التي استعطف فيــهــا ابــن جــهــور ليخــرجه مــن الســـــجن، و"الرســالة الهزلية" التي كــتبها على لسـان ولادة ذمًّا في ابن عبدوس حـبـيـبها الجـديد.

هاتان الرسالتان عـلامــة علـــى الموهبـة الكبيرة والثقافة المتنوعة التي تميز بها ابن زيــدون فـي أعـمـاله الشــعرية والنثــرية عـلى السـواء.